«الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ، وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ» (مز ٨٥: ١١)

للقديس أوغسطينوس

نقتبس هنا بعض المفاهيم الروحية من عظات ق. أوغسطينوس التي ألقاها على شعبه في أعياد الميلاد في أوائل القرن الخامس، وذلك من العظات أرقام ٢و٣و١٢ من مجموعة عظاته عن الميلاد والظهور الإلهي[١]:

ميلادان للمسيح:

اسمعوا يا بني النور، أنتم الذين تبنَّاكم الله لملكوته. اسمعوا و«اِهْتِفُوا أَيُّهَا الصِّدِّيقُونَ بِالرَّبِّ» لكي يتحقَّق فيكم القول: «بِالْمُسْتَقِيمِينَ يَلِيقُ التَّسْبِيحُ» (مز ٣٣: ١). أحبوا ما آمنتم به ونادوا بما أحببتموه ... إننا نحتفل اليوم بهذا العيد لأن المسيح وُلد منذ الأزل كإله من الآب ثم في الزمن كإنسان من العذراء، وُلد من الخلود (عدم الموت) الذي لأبيه ومن بتولية أُمِّه، وُلد من أبيه بلا أُم ومن أُمه بلا أب، من أبيه بدون زمن ومن أُمه بدون زرع، من أبيه كبدء للحياة ومن أُمه كنهاية للموت!

أرسَل الرب أمامه إنسانًا هو يوحنا ليولَد في الوقت من السنة الذي يبدأ فيه النهار يقصر (أي بعد ٢١ يونيو)، في حين أن الرب نفسه وُلِد عندما بدأ النهار يطول (أي بعد ٢١ ديسمبر)[٢]، وهذا رمز نبوي لقول المعمدان بعد ذلك: «يَنْبَغِي أَنَّ ذَاكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ» (يو ٣: ٣٠). وهذا معناه أن الحياة البشرية ينبغي أن تنقص وتنقص في ذاتها ثم تنتعش في المسيح، وذلك «لِكَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لَا لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ» (٢كو ٥: ١٥)، وحتى يقول كلٌّ منا: «أَحْيَا لَا أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا

(1) Sermons for Christmas and Epiphany, Ancient Chr. Writers,Vol. 15.

(٢) معروف أن المعمدان وُلد قبل المسيح بستة أشهر، لأن الملاك قال للعذراء عندما بشرها وحبلت بالمسيح: «هذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرًا (أي أليصابات)» (لو ١: ٣٦)، وتأمُّل ق. أوغسطينوس هنا نجد له مثيلًا في كتابات ق. غريغوريوس النيسي (رسالته الأولى إلى يوسابيوس أسقف خالكيس في سوريا).

فِيَّ» (غل٢: ٢٠). حقًّا «يَنْبَغِي أَنَّ ذَاكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ»!

«أَخْفَيْتَ هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ»:

«هذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ، نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ فِيهِ» (مز ١١٨: ٢٤). إن إيماننا المسيحي وحده هو الذي ينقل إلى داخلنا ما أعطاه لنا فعل اتضاع الرب السامي هذا، فمَنْ ذا الذي بين البشر يعرف جميع كنوز الحكمة والمعرفة المخبَّأة في المسيح والمُخفاة في فقر جسده؟ لأنه «مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (٢كو ٨: ٩). إن الله قد «أخفى هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وأعلنها لِلأَطْفَالِ» (انظر: مت ١١: ٢٥)، فليجعل المتواضعون اتضاع الله هو اتضاعهم، لأن هذا يُعينهم على أن يتجاوزوا ثقل ضعفهم ليبلغوا إلى سمو الله.

إنَّ هؤلاء "الحكماء والفهماء" يبحثون عن أمور الله العالية دون الوضيعة، ولأنهم يتجاهلون هذه الأخيرة فلن يبلغوا إلى تلك. نعم حقًّا هم "حكماء وفهماء" ولكن في أمور العالم وليس في أمور ذاك الذي «كُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ».

لقد جاء الرب إلينا كإنسان دون أن ينفصل عن أبيه، فقد وضع قوَّته في جسد طفل ولكن هذه القوة لم تأتِ من الأرض. فلنحتفل بيوم ميلاد الرب باهتمامٍ كاملٍ وبالغيرة التي تليق به. ليفرح الرجال ولتفرح النساء لأن المسيح وُلِد رجلًا ووُلد من امرأة. فقد تكرَّم كلا الجنسين. كانت المرأة هي سبب موتنا، والمرأة أيضًا ولدت لنا الحياة. لقد وُلِد «شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ» ليُطهِّر الجنس الخاطئ، لذلك لا نجعل الجسد يوجد خاطئًا، بل لتَمُت الخطية لكي تحيا الطبيعة الأصلية، لأنه وُلِد بلا خطية لكي يولَد الإنسان الخاطئ من جديد.

افرحوا أيها الشبان الذين نذرتم بتوليتكم للمسيح لأنه جاء كنموذج لكم بلا زواج!
افرحنَ أيتها العذارى، فإن عذراء قد وَلَدت لكُنَّ ذاك الذي يُمكنكُنَّ أن تُخطَبن له بلا فساد!
افرحوا أيها الأبرار، فهذا هو عيد ميلاد الذي يبرِّر!
افرحوا أيها الضعفاء والمرضى، إنه ميلاد الذي يشفي!
افرحوا أيها المأسورون، إنه عيد ميلاد الفادي!
افرحوا أيها العبيد، إنه يوم ميلاد السيد!
افرحوا أيها الأحرار، إنه عيد ميلاد الذي يُحرِّر!

افرحوا يا جميع المسيحيين، إنه عيد ميلاد مسيحكم!

«الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ، وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ»:

رغم أن اللاهوت كان مُخفًى في المذود، إلَّا أنه كُشِف للمجوس بعلامةٍ من السماء وأُعلن عنه للرعاة بكلمات البُشرى الملائكية. إننا نقدِّس بجدارةٍ هذا العيد الذي تمَّت فيه كلمات النبوة: «الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ، وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ» (مز ٨٥: ١١). فإن الحق الذي يُقيم في حضن الآب قد نبت من الأرض ليسكن أيضًا في حضن أُمٍّ. الحق الذي يحوي العالم نبت من الأرض ليولَد بين يدي امرأة. الحق الذي هو طعام عدم الفساد للملائكة قد نبت من الأرض ليأخذ لبنًا من ثدي امرأة. الحق الذي لا يمكن للسموات أن تسعه قد نبت من الأرض ليوضَع في مذود!

فما فائدة نزوله من هذا السمو إلى كل هذه المسكنة؟ بالتأكيد إنه ليس لذاته، بل إنه لنا، إن كان لنا إيمان، لمنفعتنا العظيمة. استيقظ أيها الإنسان، إنه لأجلك أنت صار الله إنسانًا: «اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ وَقُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ» (أف ٥: ١٤). إن موتًا أبديًّا كان ينتظرك لو لم يكن الرب قد وُلِد في الوقت المعيَّن، وما كُنتَ ستتحرَّر إطلاقًا من جسدك الخاطئ لو لم يكن هو نفسه قد أخذ «شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ» (رو ٨: ٣). كان لا بدَّ أن بؤسك سيكون أبديًّا لو لم يكن قد أكمل الرب فعل الرحمة هذا. ما كُنتَ لتعود إلى الحياة مرةً أخرى لو لم يكن قد جاء ليموت عوضًا عنك. كان لا بدَّ أن تنكسر سفينة حياتك لو لم يكن قد جاء ليُعينك. لو لم يأتِ لكنتَ قد هلكت!

فلنعيِّد بفرح لمجيء خلاصنا وفدائنا. لنحتفل بهذا اليوم المقدَّس الذي فيه دخل اليوم الأبدي العظيم إلى هذا اليوم القصير بهذا المقدار الوقتي. ها قد صار لنا المسيح «حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً. حَتَّى كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَنِ افْتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ» (١كو ١: ٣٠، ٣١)، وهذا يعني أنه ليس لنا أن نتكبَّر أو نفتخر مثل اليهود الذين «إِذْ كَانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللهِ، وَيَطْلُبُونَ أَن يُثْبِتُوا بِرَّ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُخْضَعُوا لِبِرِّ اللهِ» (رو ١٠: ٣). وعلى ذلك، فعندما قيل إن «الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ» تبع ذلك أن «الْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ». فالإنسان في ضعفه ما كان ليدَّعي لنفسه هذا البر، ولم يكن من حقِّه أن يقول إنَّ هذه الأمور هي بالصواب تخصُّه، وكان لا بدَّ أن يُمنع من أن يرفض برَّ الله لأنه ظنَّ أنه تبرَّر

بذاته، أي صار بارًّا بقدرته الشخصية.

إن المسيح الذي قال: «أَنَا هُوَ الْحَقُّ» (يو ١٤: ٦) وُلِد من عذراء لكي يحقق النبوة: «الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ»، والذي يؤمن بمَنْ وُلِد اليوم يتبرَّر ليس بذاته بل من الله، لكي يتمِّم بقية الآية: «وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ». «الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ» لأن «الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا» (يو ١: ١٤)، «وَالْبِرُّ مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ» لأن «كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ» (يع ١: ١٧)، ولأنه «لَا يَقْدِرُ إِنْسَانٌ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ السَّمَاءِ» (يو ٣: ٢٧).

«فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلَامٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا قَدْ صَارَ لَنَا الدُّخُولُ بِالإِيمَانِ، إِلَى هذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا مُقِيمُونَ، وَنَفْتَخِرُ عَلَى رَجَاءِ مَجْدِ اللهِ» (رو ٥: ١و٢). كم يتفق كلام الرسول هذا مع كلام المزامير! "ليكن لنا سلامٌ مع الله" لأن «الْبِرُّ وَالسَّلَامُ تَلَاثَمَا (أي قبَّلا بعضهما بعضًا)» (مز ٨٥: ١٠)، «بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» لأن «الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ». «الَّذِي بِهِ أَيْضًا قَدْ صَارَ لَنَا الدُّخُولُ بِالإِيمَانِ، إِلَى هذِهِ النِّعْمَةِ ... وَنَفْتَخِرُ عَلَى رَجَاءِ مَجْدِ اللهِ»، لم يقل: "على رجاء مجدنا" بل "مجد الله" لأن البرّ لا ينبثق منَّا بل «مِنَ السَّمَاءِ يَطَّلِعُ». ولهذا السبب فعندما وُلِد الرب من العذراء كانت بشارة الملائكة هي: «الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلَامُ، للناس ذوي المشيئة الصالحة» (لو ٢: ١٤ حسب اليوناني). فمن أين يكون السلام على الأرض إذا لم ينبع من تلك الحقيقة: أن «الْحَقُّ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُتُ» أي أن المسيح يولَد من جسد؟ «لأَنَّهُ هُوَ سَلَامُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاِثْنَيْنِ (اليهود والأُمم) وَاحِدًا» (أف ٢: ١٤). وذلك لكي ما نكون نحن "أناسًا ذوي مشيئة صالحة" مترابطين معًا برُبُط الوحدانية الحلوة!

فلنفرح إذن، لأننا بهذه النعمة يكون مجدنا هو «شَهَادَةُ ضَمِيرِنَا» (٢كو ١: ١٢) الذي به نفتخر لا بأنفسنا بل بالرب، وواضحٌ أنه لهذا السبب قيل إن الرب هو «مَجْدِي وَرَافِعُ رَأْسِي» (مز ٣: ٤)، لأنه أي نعمةٍ يمكن أن يمنحها لنا الله أعظم من أنه هو الذي له ابنٌ وحيدٌ يجعله ابنًا للإنسان مقابل أن يجعل ابنَ الإنسان ابنًا لله!!